



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

# إيران ودول المغرب المسألة الشيعية

الكتاب 115 يوليو (تموز) 2016

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

# التشيع في المغرب العربي: تمرد ناعم

عمر البشير الترابي\*

**يمثل** المغرب العربي الكبير؛ أهمية استراتيجية من نواح سياسية وثقافية، علاوة على أهميته الجغرافية، وظلّ طوال تاريخه، محطة تأثير وتأثر، سواء بثقافة الشرق الفرعونية وتالياً الإسلامية، أم بثقافة أوروبا الإغريقية وتالياً المسيحية فالإسلامية، وما حملته من تجليات متنوعة، واستمر ذلك وآثاره إلى الآن.

---

(\* باحث سوداني، عضو هيئة التحرير في مركز المسبار للدراسات والبحوث (دبي).

كل هذا يجعل ما يدور داخل المغرب مهماً، بالنسبة للمشرق وبالنسبة لأوروبا، ولغرب ووسط أفريقيا، وتزداد الأهمية للحالة الدينية لاعتبارات سياسية داخلية، كون الدين رمزاً من رموز الاستقرار، وفقاً للخبرة المغربية، ولاعتبارات روحية خارجية، إذ تعتبر دول المغرب العربي، مهمة بالنسبة لكثير من الأفارقة المسلمين، وينظر إليها بعض المالكية على أنها الدليل لأفضلية مذهبهم، للحديث الذي يرويه مسلم «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق»<sup>(1)</sup>.

## تاريخ المصطلحات وافتراقها

إن نظرة في التاريخ الإسلامي كله تجعل الفهم الديني للمصطلحات مثل التشيع والتسنن والتمذهب، ذات أبعاد تفارق الاستخدام المستقر في الأذهان اليوم، ذلك أن الزمان يضيف للمصطلحات ويحذف منها حمولة، بحسب الأحداث والأيام، فمن المهم إيجاد الفروق المنجية من الخلط البريء، خصوصاً وأن المغرب لم يكن بمنأى عن الصراع الأموي الهاشمي، وتمثلاته الدينية في إنتاج دوائر التشيع والتسنن المختلفة، وما كانت بمنأى عن الصراع الهاشمي الأكثر ضراوة بين العباسيين والعلويين، وفي المغرب شهد هذا الصراع مساراً ندر تكراره في المشرق، إذ قد يتعاون الأعداء لدحر عدو آخر،

(\*) باحث سوداني، عضو هيئة التحرير في مركز المسبار للدراسات والبحوث (دبي).

(1) النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، نظر محمد الفاريابي، الرياض 1426هـ، الطبعة الأولى، ص 925.

انظر كتاب الإمارة، باب قوله لا تزال طائفة، من حديث يحيى بن يحيى، عن هشيم بن داود بن أبي هند، عن أبي عثمان، عن سعد بن أبي وقاص، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة».

لوجود الأندلس والعباسيين والعلويين في مساحة تنافس سياسي واحدة.

يرتبط التاريخ المغربي بالأندلس، وأمرائها وعلمائها، وكان المغرب الأقصى والأندلس يتبادلان إيواء المعارضين، ويتقاسمان ظواهر حدوث المذاهب، والتقى في انتشار المذهب المالكي، وكانت الهجرات السياسية بينهما لا تنقطع، حرباً وسلاماً، هرباً وإيواءً، ليس لطبيعة سياسية فحسب، بل لطبيعة جغرافية، تملئها الخيارات الضيقة آنذاك. وُجِدَت كذلك دويلات مغاربية تتقوى على بعضها، بالنخب الأندلسية المهاجرة، كما فعل أبو زكريا الأول مع الموحيين<sup>(2)</sup>. كما كانت الثقافة الأندلسية عاملاً لتوحيد كل المغرب العربي من الناحية الثقافية<sup>(3)</sup>.

تخلص دراسة محمود علي مكي عن التشيع في الأندلس، إلى أن الأندلس شكل نواة ممانعة «سياسية» للأمويين، من رجال وصموا بالتشيع «السياسي»، وهو قريب من فكرة مولاة آل البيت ومودتهم التي يعتنقها كثير من المتصوفة السنة، خصوصاً المالكية الأشاعرة في وقت لاحق.

يذهب مكي إلى أن بدايات التشيع، بمعناه المعادي للأمويين، في الأندلس، كانت بثورة عبدالله بن سعيد بن عمار بن ياسر باعتباره

---

(2) زروق، محمد، دراسات في تاريخ المغرب، دار أفريقيا الشرق الليبية، 1990، ص34. في ملامح التأثير السياسي في الميدان السياسي، يقول: «أراد أبو زكريا الأول (1249/1228) أن يستغل النخبة الأندلسية ليدعم بها أركان دولته، ويجعل منها أداة توازن يخفف بها من ضغط شيوخ الموحيين. فأسند لبعضهم أسمى الوظائف فكان الأندلسي الرئيس عبدالله محمد بن أبي الحسين المسير لشؤون دولته، وأسند لابن الأبار، كتابة علامته، وغيرهم، حتى ضاق بهم شيوخ الموحيين ذرعاً».

(3) زروق، سبق ذكره، فصل عوامل وحدة بلاد المغرب الكبير، ص72.

من حاملي لواء الموالاتة لآل البيت، ومناصري يوسف بن عبدالرحمن الفهري أمير الأندلس عند دخول عبدالرحمن الداخل، ثم يذكر ثورة الحسين بن يحيى الخزرجي (782/165)، ثم دلف يربط ما يسميه الثورات الشيعية بالبربر، فيذكر شقياً بن عبدالواحد المكناسي (151هـ/768م - 160هـ/777م) الذي ينقل عن ابن الأثير أنّ أمه اسمها فاطمة، فادعى أنه فاطمي وتسمّى بعبدالله بن محمد، واستشفّ من رصد هذه الثورة، تأثر البربر بكل من يدعي الانتساب للعلويين، (ولذلك عزّي نجاح المولى إدريس)<sup>(4)</sup> في تأسيس دولته عام 170هـ<sup>(5)</sup>. ورباط البربر بآل البيت، وثيق، لحد نسبة بعض أمهات أئمة الاثني عشرية للبربر، وثمة زيارات ومبعوثون، بين تلاميذ الإمام جعفر الصادق وأهل تونس، وهجرة المولى إدريس ذاتها تبين عمق هذه الصلات؛ فبعد فشل ثورة الحسين بن علي عام 169هـ 786م، نجا إدريس وأخوه يحيى بن عبدالله بن الحسن<sup>(6)</sup>، من القتل في معركة

---

(4) مؤسس دولة الأدارسة «إدريس بن عبدالله بن الحسن» نجا من معركة (فخ) بين مكة والمدينة، التي جرت بين العباسيين والعلويين (169هـ - 170هـ) وهاجر خفية إلى أفريقيا عبر مصر، ومنها إلى المغرب، ونزل في بلدة من أعمال مدينة طنجة في شمال المغرب سنة 172هـ، وبايعته قبائل البربر، وفسر المؤرخون ذلك بأنه تمّ بعد معرفة قرابته للنبي (صلى الله عليه وسلم). وإن كان النظر يقتضي بحثاً أوسع وفهم العلاقات بينه والبربر، والظرف السياسي في ذلك الوقت بالنسبة لمستضيفه. انظر: أبو دياك، صالح محمد فياض، الوجيز في تاريخ المغرب والأندلس، ص 171-172، ط1، 1988، نقلاً عن: الفاسي، علي بن أبي زرع، الأئيس المطرب، ط2، الرباط، 1972، الشلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج3، ص209، وما بعدها، ط5، 1974، القاهرة، وانظر: القضاة، مصطفى أحمد؛ مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، بحوث الملتقى الأول - القاضي عبدالوهاب البغدادي، دار البحوث الإسلامية في دبي، المجلد الأول ص377، دبي، 2004.

(5) مكي، محمود علي، التشيع في الأندلس إلى نهاية ملوك الطوائف، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني، 1945، العدد 1-2، ص93-194.

(6) يحيى بن عبدالله بن الحسن، اشترك بثورة الحسن بن علي وفر إلى بلاد الديلم، فجهز الرشيد إليه جيشاً بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي، فكاتبه الفضل وبذل له الأمان، فقبل يحيى العرض شريطة أن يكون الأمان بخط الرشيد ويشهد فيه الأكابر، وطلب اليمين منه. فضلل الرشيد ذلك وحضر يحيى إلى بغداد فأكرمه الرشيد وبذل

(الفخ)؛ حيث انسل إدريس مع مولاه راشد الأوربي البربري مع حجاج مصر إلى مصر، وكان فيها من شيعته نفر، ولكنهم سرعان ما نصحوه بالذهاب غرباً، ثم إلى القيروان، ثم تلمسان، ومنها إلى طنجة، وكانت خارج سلطة بغداد، لكنها كانت معبر طريق إلى الأندلس فخافها، فيمم شطر جبل زهرون في ربيع الأول 172هـ / 9 أغسطس (آب) 877م، فوصل إلى مدينة وليلي، ونزل عند كبيرها الذي سماه البعض «اسحق بن عبد الحميد»، وصار يعجب بضيفه وعلمه وأدبه حتى كره بيعة العباسيين وتقرب إليه، ولما كان رمضان، تحلق الناس حول المولى إدريس فبايعته قبيلة أوربة، ثم انتشر خبره<sup>(7)</sup>، وانتمت دولته. من خلال هذه الرحلة، يبدو واضحاً، رسوخ ثقة البربر خصوصاً، وأهل المغرب عمومًا، في العلويين، وثقة العلويين فيهم، ولجوؤهم إليهم، في المواجهات السياسية ضد الأمويين، والعباسيين، ويتوافق هذا مع مالكيتهم، فهم ما زالوا يروون رأي الإمام مالك المتعاطف مع محمد النفس الزكية.

## وحدة المذهب... ضرورة سياسية وصد للخطر الخارجي

عمل كل من ساد في المغرب على سدّ باب المخاطر، بتأمين الوحدة الداخلية، منذ عهد المولى إدريس الأول. يقول محمد بن يجيش التازي (ت 1514) في العهد الوطاسي، وقد عاصر سقوط غرناطة

له المال. وأخيرًا اعتقله ومات. الأصفهاني، مقال الطالبين، ص63.

(7) نصرالله، سعدون عباس، دولة الأدارسة في المغرب العصور الذهبية 172-223هـ / 788-835م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص60-73.

سنة 1428 وسقوط عدد من الثغور المغربية بأيدي البرتغال، إذ يقول في ما يلخص رؤية تُستلهم مراراً: «واجتهدوا في جمع كلمتكم ينجح رأيكم وتظفروا إن شاء الله بطلبتكم» يعلق الباحث محمد زروق: «في هذا الخطاب نرى إلحاحاً على الوحدة باعتبارها الحل الوحيد لمواجهة الغزو الأجنبي دون الالتفات إلى الغير الغالب»<sup>(8)</sup>.

ولكن الوحدة على ماذا؟ ما المذهب الذي يحمل الناس عليه؟

## مالكية... المغرب العربي... متى؟

يقول أحمد تيمور «فشى المالكي بالأندلس بسبب تمكّن يحيى بن يحيى بن كثير من الحكم المنتصر حتى قال ابن حزم: مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: الحنفي بالشرق والمالكي بالأندلس» ويضيف: «وكان الغالب على أهل إفريقية السّنن، ثم غلب الحنفي، فلما تولى المعز بن باديس سنة 407 حمل أهلها وأهل ما والاها من بلاد المغرب على المذهب المالكي وحسم مادة الخلاف في المذاهب، فاستمرت له الغلبة على سائر بلاد المغرب.

وعلى ذلك يقول مالك بن المرحل المالكي شاعر المغرب:

مذهبي تقبيل خد مذهب سيدي ماذا ترى في مذهبي

لا تخالف مالكا في رأيه فعليه جُل أهل المغرب

(8) زروق؛ محمد، دراسات في تاريخ المغرب، دار أفريقيا الشرق الليبية، 1990، ص83.

وعلى ابن خلدون غلبة هذا المذهب على المغرب والأندلس فقال: «أما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لأن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة، وشيخهم يومئذ مالك وشيوخه وقلدوه من دون غيرهم، وأيضاً فالبدواة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس»<sup>(9)</sup>.

ينقل مصطفى القضاة، أن الإمام إدريس كان على مذهب الإمام مالك، ودعا الناس للأخذ به واتباع منهجه وجعله مذهباً رسمياً، معزراً ذلك بقوله: «نحن أحق باتباع مذهب مالك وقراءة كتابه الموطأ»، وقد أرسى المولى إدريس أصول المذهب المالكي في المغرب الأقصى، بإسناد منصب القضاء الأول لشخصية عربية هي: عامر بن محمد بن سعيد القيسي، تلميذ الإمام مالك، «فكان عامر أول من أدخل الموطأ إلى المغرب الأقصى»<sup>(10)</sup>.

وأسهم الحكام في انتشار المذهب، لما قربوا من يدرسه ويجيده، يقول أحمد تيمور باشا: «ولما قامت دولة بني تاشفين بالمغرب في القرن الخامس واستولوا على الأندلس، وتولى ثانيهم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين. فكان لا يقطع أمراً

(9) تيمور باشا، أحمد، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية، الحنفي المالكي الشافعي الحنبلي وانتشارها عند جمهور المسلمين، دار القادري، الطبعة الأولى، 1990، ص 51.

(10) القضاة، مصطفى أحمد؛ مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، بحوث الملتقى الأول. القاضي عبد الوهاب البغدادي، دار البحوث الإسلامية في دبي، المجلد الأول، دبي، 2004، ص 379 وما بعدها.

في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، وألزم القضاء بالألا يبتوا حكومة في صغير الأمور وكبيرها إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فعظم أمر الفقهاء. ولم يكن يقرب منه، ويحظى عنده إلا من علم مذهب مالك، فنفتت في زمنه كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها.... ثم زالت دولتهم واستولى الموحدون على مملكتهم في أوائل القرن السادس، وسلك خليفتهم عبد المؤمن بن علي هذا المسلك فجمع الناس بالمغرب على مذهب مالك في الفروع، ومذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول»<sup>(11)</sup>.

يكثُر الجِدال حول دور الموحدين، في تغيير البيئَة الدينيَة، يقول مصطفى القضاة: «إنه وبسقوط الدولة المرابطية (1050-1147) واستيلاء الدولة الموحدية (1121-1269) مرَّ المذهب المالكي بفترة عصيبة، حيث ضيق على فقهاء المالكية وأحرقت مدونة سحنون، خصوصاً في عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، حيث طلب من الناس ترك الاشتغال بعلم الرأي وأن لا يتمسكوا بشيء من كتب الفقه، ويواصل: «غير أن هذه المحنة التي لحقت بأتباع المذهب المالكي لم تطل، فبزوال الدولة الموحدية ومجيء الدولة المرينية (1242-1465) عاد النفوذ إلى المذهب المالكي، وما زال، فقد استطاع بنو مرين بسرعة أن يسترجعوا ما ضاع، وأن يبعثوا ما فقد من كتب المالكية وفي صدرها كتاب المدونة»<sup>(12)</sup>.

(11) تيمور، باشا أحمد، نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية، الحنفي المالكي الشافعي الحنبلي وانتشارها عند جمهور المسلمين، دار القادري، الطبعة الأولى، 1990، ص 66-68.

(12) قضاة، مصطفى أحمد؛ مدرسة المغرب الأقصى في الفقه المالكي، بحوث الملتقى الأول. القاضي عبد الوهاب

ولكن البعض يناقش هذه المعطيات، ويحاول نقدها، بفهم الدولة الموحدية على أنها تبنّت منهاج بعث الاجتهاد، ويورد بحث حاول تبني نظرة جديدة، طرح في ندوة المدرسة المالكية بفاس، حول الصلة بين المالكية والدولة الموحدية: «على الرغم من أنه لا يمكننا -استناداً إلى ما بين أيدينا من مصادر- مجازاة صاحب المعجب<sup>(13)</sup> في تقديره لحجم انتشار المذهب الظاهري، فإن ذلك لا ينفي مدى الإقبال الذي حظي به في بعض الأوساط العامية، لدواعٍ متعددة ومتنوعة، وهو ما يكون عاينه الفقهاء، وقد هالهم أن ظهر بين العامة من يتنكر لفتواهم ويستقل بالنظر لنفسه». وفي ذلك يقول الفقيه ابن المناصف (ت 620هـ/1223م):

«وقد انتهى الحال اليوم إلى أن ينظر أحد العوامّ في أوراق من الفقه أو الكلام، ويُقدّم على الخوض فيما يهلكه والمستمع منه، أو يقف على مسائل من الخلاف؛ فيختار منها بحسب ما يوافقه من شتات المذاهب... ثم يتصدّر القول ويطلب الفتوى... ولقد أخبرني غير واحد عن رجل من العامة -أعرفه الآن- ممن وقف على كلام بعض أهل الظاهر من غير تفهّم لمعانيه ولا ملاقة شيخ فيه، أنه أفتى الناس...، وعن آخرين يُفتون في عظيم النوازل على حسب أغراضهم، بما قد سمعوه فلم يفهموه، أو قاسوه فحرّفوه... وأشد ما أُلّع ضعفاء العامة

البغدادي، دار البحوث الإسلامية في دبي، المجلد الأول، دبي 2004، ص 379 وما بعدها.

(13) المعجب لعبد الواحد المراكشي (ت 647هـ/1249م)، وروايته هي المستند الأساسي لكثير من الباحثين ممن رام البحث في الشأن المالكي على عصر دولة الموحّدين؛ وخاصة حادثة إحراق كتب الفروع الفقهية-المالكية بمدينة فاس بأمر المنصور الموحّدي.

بالأخذ عنهم والافتداء بهم...»<sup>(14)</sup>.

نشرت وزارة الأوقاف المغربية، على موقعها الإلكتروني، مقالاً، بعنوان «لماذا اختارت المغرب المذهب المالكي»، جاء فيه: «ملاءمة المذهب لطبيعة أهل المغرب، ومساندة السلطة للفقهاء المالكية، إن لتشابه البيئتين المغربية بالبيئتين الحجازية، واشتراكهما في كثير من الأمور والخصائص والعادات، كاعتمادهم الفقه العملي (الأعراف والعادات) أصلاً من الأصول التشريعية، الأثر القوي في ترسيخ أركان هذا المذهب وتثبيت دعائمه في بلاد المغرب. كما ظل أهل المغرب ملتزمين بهذا المذهب على مستوى الحكم، فأضحى مذهبه الرسمي منذ عهد الأدارسة إلى يومنا هذا، يلزم به الأمراء والسلاطين الخاصة والعامة، مما يدل على أصالة هذا المذهب، وقدرته على التكيف والاستمرارية»<sup>(15)</sup>.

المدرسة الرائجة في تناول المذهب المالكي، هي ربطه تماماً، بإدريس الأول، كما مرّ، ورفض الحديث عن تأخر دخوله. يقول محمد عزالدين معيار الإدريسي، في بحث قديم، تعيد نشره وزارة الأوقاف المغربية: «والواقع أن المولى إدريس الأكبر، كان عند دخوله المغرب قد أثر الاتجاه السني، واتباع مذهب مالك، مما كان فيه للمغرب الخير

(14) لحمير: حميد، كتاب المدرسة الفقهية المالكية الفاسية الأصالة والامتداد، منشورات ندوة 2007.

(15) لماذا اختار المغاربة المذهب المالكي؟ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الموقع الرسمي، 13 يناير

(كانون الثاني) 2012، على الرابط:

<http://www.habous.gov.ma/2012-01-26-16-13-00/1314>

وانظر: حسين، د. عقيلة، المرجعية الفقهية في الجزائر، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية؛ صادرة عن مخبر الشريعة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الجزائر، العدد السابع، سنة 2014، ص37.

العميم، وبذلك جمع المولى إدريس بين أمرين عظيمين ضمنا لهذا البلد الأمين التقدم والازدهار، والوحدة والاستقرار، وهما العرش الذي ظل على مدى أكثر من اثني عشر قرناً مصدر عظمة المغرب وشموخته، ومذهب مالك الذي ظل وعلى الامتداد الزمني نفسه من أهم عوامل نجاة المغرب من الاختلاف المذهبي، والتباين الفقهي، الشيء الذي عانت منه كثير من البلاد الإسلامية التي سمحت بتعدد المذاهب الفقهية، ويبدو من خلال ما تقدم من المولى إدريس بن عبدالله، الذي كان يحفظ موطأ مالك، أول من دعا المغاربة إلى مذهب مالك وقراءة الموطأ، قبل أن يرسخ من بعده خلفه ووارث سره المولى إدريس الأزهر الذي اختار عامراً القيسي لقضاء فاس، وكان كما قال ابن أبي زرع «رجلاً صالحاً ورعاً فقيهاً، سمع من مالك وسفيان الثوري، وروى عنهما ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد، ثم جاز إلى العدوة فوفد منها على إدريس فيمن وفد عليه من المغرب. وهكذا يظهر أن أبناء عبدالله الكامل، وبالتحديد ابنه إدريس الأكبر ثم حفيده إدريس الأصغر هما اللذان أدخلوا مذهب مالك إلى المغرب وفي الوقت نفسه موطأ مالك»<sup>(16)</sup>.

## التشيع... القديم والجديد؟

كل الحديث عن إسماعيلية وشيعية وزيدية وحتى إباضية الدول

---

(16) الإدريسي، محمد عز الدين معيار، عبدالله الكامل ملتقى نسب الدولتين: الإدريسية والعلوية، وشيخ إمام دار الهجرة مالك بن أنس، مجلة دعوة الحق، العدد (326) شوال - ذو القعدة 1417 / مارس (آذار) 1997، لنسخة إلكترونية انظر الرابط التالي:

<http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/8146>

المتكوّنة في شمال أفريقيا، والمغرب، يتمّ ربطه ربطاً متعسفاً، بظاهرة الأقلية الناشئة الآن في هذه الدول، حتى وإن تضافرت النظريات من قبل المتحوّلين، فهي لا تعدو أن تكون محاولة لاستعطاف التاريخ واستخدامه كأداة تبشيرية، ذلك لأنّ الحضور المتشيع الناشئ الآن، لم ينبثق من تحركات مجتمعية مكتومة، ولا هو استمرار متضائل لحركة تاريخية، أو وجود منزو، كحال الإباضية في الجزائر مثلاً، واليهود في بعض هذه الدول، التي استطاعت الحفاظ على نسل مجتمعي باقٍ، ولكنّ الظاهرة برمتها جديدة، تستخدم التاريخ استخداماً.

الإجمال التاريخي للمراحل التي يمكن وصفها بالشيعية - إذا جرى اعتبار محطة إدريس الأول - تمثّل تشيعاً سياسياً ولكنه ليس عقدياً، بيد أنّ المؤرخ المغربي محمد المغوار<sup>(17)</sup> يسرد المراحل التالية، فيورد تأسيس إمارة شيعية في سوس الأقصى، وتحديدًا بمدينة إيجلي قاعدة الأمير الإدريسي عبدالله بن إدريس الأزهر الذي وفد على أحد أحفاده، داعية «شيعي» يدعى عبدالله بن ورسند البجلي من أهل قسطنطينية بالجنوب التونسي، واستطاع أن يحظى بثقة الأمير الإدريسي وبولاء السكان فتكونت طائفة شيعية مغربية تدعى الشيعة البجلية، وظل الصراع بين شيعة سوس ومالكيتهما إلى أن تمكن المرابطون

---

(17) محمد المغوار هو أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بالرباط. حاصل على دكتوراه الدولة في التاريخ الوسيط، مهتم بالتاريخ الثقافي والاجتماعي والديني. صدر له كتاب: «الموحدون وأزمات المجتمع»، دار جذور للنشر، الرباط، 2007. نشر بحوث عدة حول تاريخ المذاهب بالمغرب منها على سبيل المثال: الأشعرية بالمغرب في عصر المرابطين، المذهب الظاهري في العصر الموحد، صمود المذهب المالكي في عصر الموحدين، من الزهد إلى التصوف بالمغرب الوسيط. حرر الفصل المتعلق بالتحوّلات الدينية والثقافية بالمغرب الوسيط، ضمن كتاب تاريخ المغرب الذي أصدره المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب.

من القضاء على التشيّع نهائياً، ووحّدوا المغرب على أساس المذهب المالكي. ويذكر الرحالة العراقي ابن حوقل الذي زار المغرب في حدود سنة 350هـ أن الصلاة كانت تقام مرتين بمسجد تارودانت، حيث يقيم المالكية صلاتهم، ثم يفسحون المجال للشيعة، وأشار أيضاً إلى أن الحروب والصراعات بينهم كانت مستمرة.<sup>(18)</sup> ثم يشير إلى أن عبيد الله المهدي الشيعي، مؤسس الدولة الفاطمية بسجلماسة التي كان مسجوناً بها على أيدي أمراءها الصفريين، غير أنه غادرها مباشرة ليقوم دولته بتونس انطلاقاً من رقادة ثم المهديّة فيما بعد، بدعم من طرف قبيلة كتامة الصنهاجية القوية التي ظلت أكبر سند للفاطميين، الذين خاضوا حروباً طاحنة ضد الأدارسة وأمويي الأندلس. وتكرّر غزو الفاطميين للمغرب في عهد الأمير الإدريسي، الحسن بن القاسم كنون. شن الفاطميون حملة قوية على المغرب سنة 347هـ/958م بقيادة جوهر الصقلي الذي استولى على تاهرت وسجلماسة واقتحم فاس. ولما كان الحسن يعادي أمويي الأندلس، فقد سارع إلى توجيه ولائه السياسي للفاطميين، لكن الأمويين هزموه ونفوه إلى الأندلس فظل بها

---

(18) يعني بذلك قول ابن حوقل، عند ذكره لرحلته من يسار طريق فاس إلى سجلماسة إقليم إغمات، يقول: «ومن ورائها إلى ناحية البحر المحيط السوس الأقصى، وليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيراً منها، قد جمعت فنون المأكّل كلها ذات الصرود والجروم، فيها الأترج والجزوز واللوز والنخصل وقصب السكر والسّمسم والقنب وسائر البقول لا تكاد تجتمع غيرها» إلى أن يصل لقوله: «وأهل السوس فرقتان مختلفتان: مالكيون أهل السنة، وموسويون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر من أصحاب عليّ بن ورسند»، ويضيف في صفاتهم: «والغالب على الجميع الجفاء والغلظة في العشرة وقلة رقة الطبع» ثم يضيف: «وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة، ولهم مسجد جامع تصلّي فيه الفرقتان فرادى عشر صلوات، إذا صلت فرقة تلتها الأخرى بعشرة أذانات وعشر إقامات».

انظر: ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992، ص90.

إلى سنة 365هـ/975م ثم سمح له بالالتحاق بالمشرق، فحل بمصر واستنجد بالخليفة الفاطمي العزيز لاسترداد ملكه. فوجهه إلى عامل إفريقية بلكين بن زيري وأمده بجيش توجه به إلى المغرب لاسترداد إمارته، لكن الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي كان الأمر قد آل إليه سرح إليه جيشاً أندلسياً، فالتمس الحسن الرجوع إلى الأندلس، غير أن المنصور بعث من اغتاله سنة 375هـ/985م فانتهت بموته دولة الأدارسة. ولم يتمكن من نشر التشيع حتى في صفوف قبيلة كتامة التي ظلت بعض فروعها بشمال المغرب في الريف وجباله على سنيتهما إلى اليوم».

بعد هذا السرد يقول المغراوي: «من جانب آخر، لا نقف على ما يؤكد أن الأمراء الأدارسة قد اتخذوا التشيع مذهباً، كما لا تتوفر على أية إشارة لوجود فقهاء على المذهب الشيعي خلال العصر الإدريسي كله، بل كل الفقهاء الذين أشارت إليهم المصادر كانوا مالكيين. وهناك محطة أخرى تتعلق بلجوء شخص من مصر ادعى أنه ابن آخر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة وهو الخليفة العاضد، وقدم نفسه لقبائل غمارة فبايعوه، لكن تدخل الجيش الموحدى أفضل دعوته. ومنذ ذلك الحين لم يعد ذكر التشيع يتردد في التاريخ المغربي».<sup>(19)</sup>

## التشيع الراهن... تقرير الحالة الدينية

يقول محمد بوشيخي، في تقرير الحالة الدينية في المغرب، الصادر

(19) حوار مع المؤرخ المغربي محمد المغراوي، أجراه محمود عبدالفتني، نشر في صحيفة الاتحاد الاشتراكي يوم

.2014 /5/17

عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود: وإذا كانت الممارسة النقدية للتراث المغربي، من جانب الفعاليات الشيعية، تروم تبيئة المذهبية الشيعية في الوسط الثقافي المغربي وطرح التشيع كـ«مكون ثقافي» أصيل، فإن الممارسة العملية أخذت في التجسيد الحي لتلك الأفكار لخلق فضاءات «للتدين الجماعي» عبر إحياء وبعث التقاليد المغربية بمناسبة عاشوراء وأربعينية الحسين وتضمينها محتوى عقدياً شيعياً، كما يأتي في السياق نفسه محاولة تنظيمهم بشكل رسمي لأول زيارة لضريح المولى إدريس زرهون بمناسبة ذكرى عاشوراء لسنة 1433 (الموافقة لسنة 2011) بعد تعميم دعوة على مواقع التواصل الاجتماعي لجعلها ملتقى سنوياً يجسد وثاق المحبة لآل البيت، كما تكررت سنة 1434 بمشاركة حوالي (25) شخصاً، يومي 8 و9 ديسمبر (كانون الأول) 2012، ثم سنة 1435 بمشاركة حوالي (17) شخصاً، يومي 9 و10 نوفمبر (تشرين الثاني) 2013. حيث عرفت الزيارة قراءة القرآن وترديد أدعية «مفاتيح الجنان» لصاحبه عباس القمي و«الصحيفة السجادية» للإمام علي بن الحسين، «وتشهد هذه اللقاءات حلقات علمية تتناول دروساً ومواظب دينية متنوعة يخصص جانب منها لمحنة الحسين سبط الرسول (ص) وأئمة آل البيت». وفي سياق مرتبط بتدبير الحقل الديني عبر الخطب الرسالي عن امتعاضه من تعيين الشيخ السلفي محمد الفزازي خطيباً لمسجد طارق بن زياد، أحد أكبر مساجد طنجة، الذي اختار موضوع الشيعة في أول خطبة جمعة له. جاء ذلك في رسالة مفتوحة وجهها إلى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، ونشرها على موقعه يوم 4 أغسطس (آب) 2012، تفادى فيها اتهام السلطات الرسمية بتدبير التعيين لقطع الطريق أمام الشيعة، وأقر فيها بأحقية الدولة «في أن تحمي

حقلها الديني الرسمي وتضبطه بقواعد وثوابت» تتمثل في «العقيدة الأشعرية والمذهب الفقهي المالكي والتصوف» لكن ما أثار استياءنا -تقول الرسالة- «كمواطنين مغاربة هو قراركم منح إمامة الجمعة في مسجد بمدينة طنجة لأحد شيوخ السلفية الجهادية المفرج عنه بموجب عفو ملكي إبان الحراك سنة 2011»، ويضيف البوشيخي: «إننا نرفض تماما أن يتم اختراق المؤسسة الدينية الرسمية من قبل تيارات، سواء كانت دينية أم سياسية، معتبرين أن الحياد أمر ضروري في المؤسسة الدينية الرسمية كي تتعزز شرعيتها ومصداقيتها». كما طالبت الوزير بتصحيح الوضع واستعادة الحقل الديني لاستقلالته وحياديته «كي لا تتحول المنابر الدينية إلى أدوات للتحريض السياسي ضد بعض القوى السياسية، أو التحريض الطائفي ضد بعض المسلمين المخالفين لهم في المذهب» واختتمت الرسالة بتحميل المسؤولية للوزير عن «أي انزلاق لا يمكن التحكم فيه من قبل العوام من هذا الطرف أو ذاك»<sup>(20)</sup>.

## الولاء لآل البيت...؟

ولا بد هنا من التذكير ببعض المظاهر التي تعكس ولاء المغاربة لآل البيت، مثل تسميات فاطمة الزهراء وعلي والحسن والحسين وزينب وإدريس بشكل كبير، إضافة إلى بعض الطقوس الخاصة في عاشوراء، مثل التصدق بالماء في صبيحتها للتذكير بمنع الماء عن الإمام الحسين (رضي الله عنه) بعد محاصرته من طرف جيش الأمويين، وإشعال

---

(20) بوشيخي، محمد، الشيعة والتشيع في المغرب: الرؤى، الاستراتيجيات والمرجعيات، تقرير الحالة الدينية في المغرب (2013-2014)، مركز المغرب الأقصى للدراسات والأبحاث.

النيران والقفز عليها كنوع من استدعاء مشهد الحرب التي قُتل فيها الإمام الحسين ومن معه. وقد حلل هذه المظاهر تحليلاً ضافياً عباس الجراري في بحث<sup>(21)</sup> له بعنوان «عاشوراء عند المغاربة». إضافة إلى طقوس الزيارة لأضرحة المولى إدريس الأكبر والأزهر، وغيرهما من الأولياء الأشراف مثل مولاي عبدالسلام بن مشيش وغيره، وحتى قوس قزح يسميه المغاربة بحزام فاطمة الزهراء. وما نستنتجه من كل هذا هو أن ولاء المغاربة لآل البيت ظل قوياً ومستمراً في جميع مراحل التاريخ، دون أن يكون له أي تعبير عقدي شيعي. ويضيف الجراري: «في الواقع فإن النشاط المذهبي الشيعي وغيره قد ينجح في إحداث بعض الاختراقات، وهذا في حد ذاته أمر قد تكون له تداعيات سلبية على التماسك المجتمعي، بالنظر إلى المحتوى الفكري والأيدولوجي للتشيع الذي يتم التركيز فيه بالأساس على عناصر الاختلاف مع أهل السنة، بينما تحرص فئة قليلة من المعتدلين من أهل السنة ومن الشيعة أيضاً على إبراز نقاط الالتقاء وهي كثيرة، وذلك ضداً من السياق العام للحركة المذهبية في العالم الإسلامي، التي تسيير - للأسف- في اتجاه تأجيج الصراع بين الشيعة والسنة، حيث الكلمة الحاسمة هي للمتطرفين من المذهبين على حد سواء، بل إننا بدأنا في السنوات الأخيرة نلاحظ انبثاق صراع جديد بين الإباضية والسلفيين في الجزائر مثلاً»<sup>(22)</sup>.

الطبيعة الصوفية والأشعرية والمالكية، تزعم ارتباطاً وثيقاً بآل

(21) كتاب «عاشوراء عند المغاربة» لعباس الجراري، طبعة الرباط 1419هـ/1999م.

(22) حوار مع المؤرخ المغربي محمد المغراوي، مرجع سابق.

البيت، تجده في بعض مصر، والسودان وبلاد المغرب، وهذا الارتباط، موروث بشكل عاطفي، ولكن هذا الارتباط سيتأثر بالحالة المتشكلة، سواء باعتبارها مدخلاً للتشيع، أو باعتبارات صعود المد السلفي الذي يتبنى مغالبة التشيع.

## قوة الثقافة المركزية للمغرب... أكبر من المذاهب

أهمية الدين والتدين، كبيرة، خصوصاً في الشعوب التي تحمل أشواقاً إلى الغيب جرى استثمارها وتميبتها على مدار قرون، ولكن قوة الوعي الجمعي تجعل التحولات أياً كان مسارها، حدثاً هامشياً لا يغير من وعي المجتمع، وعقيدته الثابتة. يلاحظ عباس الجراري في كتابه عن عاشوراء المغربية، أن المجتمع المغربي يخلط فيها أشواقاً حميمة بنفور واضح، فيمزج الفرح بالحزن، فلا هي عاشوراء شيعية مليئة بالبكائيات، ولا هي عاشوراء التشفي الأموي المليئة بالفرح والتوسع؛ بل هي جميعهما. وإن كان يمكن فهم هذا في الإطار الثقافى لسنة المتشبعين بالموالاة لآل البيت، ولكنه يؤشر في العمق لقوة الشخصية المغربية التي تستطيع أن تهضم التحولات، وتدمجها في ثقافتها، ومن ثم تتعالى عليها، دون أن يهتز الجذر.

حضور المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والمسلك الجنيدي أو الصوفي، في المزاج العام، يتعدى في جوانب كثيرة المدى الديني، ليأتي الاعتداد بها، لكون هذه المشارب، هي جذر في الشخصية، وهو جذر تم التعامل معه وهضمه بشكل لا يعيق التطور الإنساني لهذه الشخصية،

من هنا تكون حالة الممانعة حيال المذاهب الجديدة، ممانعة مركبة، بعمق ديني، ومجتمعي، وسياسي. ويكون السعي لمذاهب جديدة، سعياً مركباً، يتفوق على مجرد «نظرية» الحق والشر الدينيتين، بل يتعداهما إلى السعي للتمرد على الشخصية، فيكون الضيق به، ليس ضيقاً، بفكرة الحرية، ولكنه حرص على مبدأ الاستقرار.

## تدبير التنوع مكفول... ولكن أي تنوع؟

إن المجالات التي تتناول الهندسة الاجتماعية، والحفاظ على النسيج المجتمعي، وعلاقة الديمقراطية وحقوق الإنسان بالاستقرار، والتنوع المصنوع، والتنوع الحقيقي، والارتباط الخارجي، وحرية الاعتقاد، وحق الإيمان بأي عقيدة، كلها مجالات ستواجه تحديات كبيرة، في ظل النزوع المجتمعي لإفراز ظواهر جديدة، بدوافع لم يتم دراستها بعناية إلى الآن. علاوة على منهج البحث التاريخي، الذي يشهد اضطراباً في المصطلحات، وقد تغيب التعريفات الدقيقة التي تراعي تاريخ المفردات والأوصاف، كما جرى في معاني التسنن، والتشيع، والاعتزال، وغيرها من أوصاف، استقر تعريفها، وتفرع وانحرف، وشهد تبديلاً، يفشل كثيرون، في استعماله.

بيد أن هذا كله، يجعل الألوان المختلفة والتنوع الطبيعي موجوداً، وحاضراً، والدولة بوصفها منظمة الجماعات، مستوعبة له. إلا أنها تضطر في حالات، لممارسة الحمائية، وضبط المزاج الديني، وتفعيل آليات وأجندة الأمن الديني، الذي ينأى بالبلاد عن النزعات الانقسامية، ويستبق الحروب الأهلية والنزاعات الداخلية، بقوانين

ترشد التنوع «المصطنع»، بما يلائم المجتمع. هذا كله يبقى مثار الدراسة، في ظل صراعات سياسية، وتأثيرات في العلاقات الدولية.

## هل هي ظاهرة تمرد سياسي ناعم؟

في تاريخ المغرب الكبير، يبدو أنّ التحولات الدينية، والمذهبية، لا تعتمد -في غالبها- على مجرد الخيارات الشخصية، بل تكون تمظهرًا من تمظهرات العمل السياسي الجماعي وانعكاساته على الفرد، والخطوات لتغيير نظام الحكم، تسبقها اجتهادات فردية تتسع لتصبح أقلية فاعلة، ولعل هذا ما يجعل الوحدة المذهبية خطأ أحمر، لا يفرط المغاربة فيه.

من هذا المنطلق، تبدو التيارات الناشئة سواء الشيعية أم السلفية، أم غير المتمذهبة، أمرًا يسترعي الانتباه، فهي قد تظهر كحالة من التعبير عن التمرد السياسي، أكثر من تعبيرها عن الحاجة السياسية والفكرية.

عام 1984، كتب أ. بيل جيمس، في الفورين إيفيرز عن التدين الرسمي والتدين الشعبي في منطقة الخليج العربي، مشيرًا إلى أنّ الشعوب بدأت تخرج من جلباب «دين» حكامها، ويشير الكاتب إلى أنّ العرب في الخليج، جرّبوا الليبرالية والماركسية والرأسمالية، كما ابتدعوا الناصرية والبعثية، ولكن كل ذلك لم يوجد لهم أجوبة، كما يلمح إلى أن الإسلام الرسمي، ينضم إلى هذه الأيديولوجيات، وفتح الجواب، ليقول بأنّ عودةً إلى إسلام شعبي جديد، هي خيار، وليست

الخيار الأخير، بل سيظل الوجدان الجماهيري، والتمرد على الإسلام الرسمي، يحاول أن يستلهم من روح الإسلام كل فترة، نمطاً جديداً<sup>(23)</sup>.

إن ما يحفز على اعتبار الظاهرة، تمرداً سياسياً، هو سلوكها وسببها، فحينما ترتبط التحولات الدينية، بانتصارات سياسية، كالإعجاب بما حققه حسن نصرالله وحزبه في حرب (يوليو) تموز، التي تم تسويقها كانتصار، وقبلها ما صورته آلة الدعاية من الثورة الخمينية وقدرتها على بناء دولة، كل هذه معطيات سياسية أسهمت، وهي تؤكد، أن التحولات الدينية تأخذ شكلاً سياسياً، هو في عمقه، حالة من حالات التمرد على المجتمع، وعلى الدولة. حتى وإن تعددت المرجعيات الشيعية للمتحولين، حتى لمن لا يتبعون الولي الفقيه، ومن يرجعون لمحمد حسين فضل الله، وغيره، إلا أن المعنى السياسي يظل كامناً، ويتبدى في أوقات لاحقة.

اتساع رقعة الشباب، في المغرب العربي، بل والشرق الأوسط، إذ يمثلون الفئة العمرية الأكثر عدداً، والتي تعيش رغبة في اختبار أجوبة جديدة للخروج من مأزق فشل النخبة والدولة في توفير أجوبة مناسبة تقنعهم، مما يدفعهم إلى تجربة نماذج جديدة، وهناك آلة قادرة على إيهاام المخيال الشبابي بوجود أجوبة على الضفة الأخرى، هذا المسار يجعل التنظيمات والعمل السري وحتى الحركات الباطنية، مفسرة الحضور، خاصة إذا وُجدت جذور يمكن توهمها في التاريخ.

---

(23) A.Bill James; The Persian Gulf: Resurgent Islam, Foreign Affairs, Fall 1984; Volume 36 Number 1. P:115

إن دراسة تاريخ المغرب العربي الكبير، وتمحيص التحوّلات الدينية وآثارها الاجتماعية، تضع ملف التشييع في المغرب، في مسار سياسي، لا عقدي، والنظرة إليه كمحاولة تمرد «مكتوم»، تشبه النظرة إلى الاتجاه نحو السلفية الجهادية التي صارت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي من أشكال المقاومة الراديكالية والتمرد السياسي العنيف، وإن كان نزوع الشباب إلى التشييع بارداً ولا يعتمل فيه العنف أساساً، فإنّ صلته بالقطب الإيراني، تزيد المخاوف، ولكن في يدٍ أخرى تبدو مسألة الحريات الرحبة، وبذر التسامح وتحسين قيم الحضارة الإنسانية هي الخيارات بعيدة المدى، في التعامل مع الشباب الذي يطرح أسئلة عصية، واتساع الشريحة يجعل التفاوضي عنها، وعن سلوكها الفطري صعباً، ويلزم المشرّع باستصحابها في المدى الطويل.

## خلاصة

نجت دول شمال أفريقيا والمغرب العربي، من الحروب الأهلية، فيما عدا ليبيا، وهي تستعد للمناورة أمام تحديات أوسع، ويطل بند الدين كأحد العوامل التي تعتمد عليها هذه البلاد في وحدتها، في وقت تراهن فيه على أن الاستقرار والسعي نحو الإصلاح المتدرّج هو أكبر حريّة ممكنة.

لقد شهدت دول المغرب، تحوّلات عميقة، أفرزت مجتمعات قويّة وراسخة، وتستطيع استيعاب المتغيرات، وصهر الثقافات المتعددة نسبياً، وأسهمت الجغرافيا المغاربية في تشكيل هويّة للإنسان المغربي، وظلّ الدين عاملاً معوّضاً لحاجاتٍ انطبعت عليها الشعوب، وعاملاً في شرح

الهوية المغاربية العامة. ولكن التغيرات الديموغرافية، والسياسية، والاجتماعية التي عاشتها المنطقة في القرن الماضي، والانفتاح الكبير، أنتجت تيارات، بعضها كانت تعبر عن حالة من حالات التمرد السياسي والمجتمعي، وتبقى الدولة هي الفيصل.